نـــــــورا

يسرى الأيوبي

طرق الباب وسمعت صوت انتحاب قبل أن أفتحه وأفاجأ برجل قروي غريب يسحب وراءه طفلة لاتتجاوز الثامنة من عمرها.

واشتدّ عويل الطفلة حين رأتني:

– "خذني لأمي .. عد بي للضيعة ..لأمي!"

وهمت يد الرجل بضربها وهو يعنفها:

– "اخرسي !..أموتك لو تفتحي فمك بكلمة.."

واستمرت الطفلة في عويلها:

– "وينك ياأمي؟..وينك ياخوي محمد؟.."

وسألت الرجل عما يريد فقال:

– "دلوني على بيتكم، قالوا جماعة طيبين..خليها عندك، فهيمة وشاطرة وتعجبك."

فأجبت وقلبي تعصره الكآبة:

– "عد بها الى أمها.. حرام!.. انها أصغر من أن تحرم من حضن أمها.."

وألح الرجل بقوله:

– "لا تطلع من عتبة هالدار.."

وبقيت مصرة على رفضها وأنا اقول:

– "يا خيي، لايمكنني قبول مساعدة الصغار.. أحرى بها أن تساعد في سنها."

– "لا أريد أن أهينها.. عندكم أؤمن عليها .."

– "يا خيي إفهم، أنا لاأستخدم أحدا.."

ولكن الرجل بقي متشبثا بالباب لايبرحه، ودفع بالصغيرة الى الداخل وهو يأمرها بحمل طفلتي حنان التي تبعتني ووقفت خلفي تنظر بعينين دهشتين لما ترى..

ولما حاولت الصغيرة أن تعود مندفعة نحو الباب تناولها بصفعة مدوية على خدها فعلا زعاقها ولجّت في الإستعبار وهي تغمغم خلال شهيقها:

– "ليش تضربني ؟ لأني أريد أمي؟.."

وهتفت به غاضبة وأنا أضمها:

– "أصبحت في حمايتي..لن أسمح لك بضربها ولو كنت والدها.."

وغمغمت الصغيرة:

– "انت عمي.. انت لست أبي حتى تمون علي وتضربني.."

وصفعها مرة أخرى وقد شحب وجهه انفعالا:

– "أسكتي يا فاجرة!"

فردّت وهي تخاطبني:

– "جاء بي غصبا عني وعن أمي.."

والتفت الي يحاول الإبتسام:

– "انكسر ظهرنا يا خانم.. لم نر مثل هذا الموسم.."

وسألته عن والد الطفلة ولم لم يأت بنفسه فقال:

– "قلبه رقيق.. لايستطيع أن يراها في هذه الحال.."

وأردف وهو يعصر دمعه:

– "هو الذي أراد مني أن أشغلها في أحد البيوت.."

وحين وجدني لاأزال متجهمة حيرى أخذ يطيب خاطر الصغيرة ويقول:

– "ان سكت جعلت أمك تزورك."

ولم تكن الصغيرة ترد عليه الاّ بقولها:

– "روح بي لأمي! خذني لأمي!"

وهتف بها مغضبا وقد عيل صبره:

– " ان لم تسكتي رحت بك الى بيت ثان يضربونك فيه صباح مساء..ما راجعة للضيعة ، فهمت؟"

وخنق التهديد صراخها، وأخذت تمسح عبراتها وهي تشهق بينما رحت أربت على كتفها والألم يحز قلبي .. لقد خشيت أنا الأخرى أن يقع ذلك البرعم الغض بين أيد قاسية، وهمست لها مطمئنة اياها:

– "ماسمك يا صغيرة؟ ..نورا؟ اسمك جميل.. إسمعي يانورا، سأبقيك عندي اليوم وأعيدك الى أمك غدا فلا تجزعي.."

وقلت للعم:

– "أريد أن أرى والدتها.."

وتململ وهو يجيب:

– "لاتقدر تترك الضيعة..عندها أولاد صغار.."

وقلت بإصرار:

– "يمكنها أن تأتي وسأدفع لها أجرة مجيئها ورواحها فتطمئن على نورا "

ووافق بعد احتجاج.. وبقيت نورا عندي.. ولكن أمها لم تأت ، بل جاء والدها في اليوم التالي وكان خجولا رقيق القلب ، وأعرب عن رغبته لإبقائها عندنا فيطمئن على مستقبلها تتهذب وتبتعد عن البيت وعن أمها التي لاتفتأ تضربها.."

وسمعت نورا تغمغم من ورائي وكانت قد تبعتني تصغي خلف الباب:

– "ليش تقول هيك عن أمي؟ أمي تحبني ولا تضربني."

وهتف بها والدها حين رآها تطل برأسها:

– "نورا ، أنظري ماذا أحضرت لك معي.."

ومدّ يده بحقيبة صغيرة زمردية اللون فتهلل وجهها وهي تفتحها وتجدها ممتلئة بالسكاكر. وهمس لها بعطف:

– "شو أشتري لك للعيد؟"

وأجابته وقد بان الفرح بعينيها:

– "فستان ساتان أحمر طويل.."

ووعدها بذلك والتفت الي يخاطبني:

– "لاأقدر أجيب طلبها، ولا أقدر أخيّبها .. الأمور عسرة علينا هذه السنة وهذه بكري وغالية علي.. عندي غيرها ولدين ، وأمي وأبي مسؤول عنهم.. على الأقل أطمئن عليها هون فلا تجوع، وأستفيد بالمال اللي آخذه فأشتري حاجاتي وأفي ديوني."

وحين ودعها قال لها:

– "أنا رايح.. بشو توصيني؟"

وامتلأت عيناها بالدموع وهي تعبث بالحقيبة دون أن تجيب، ولما رأته ينزل السلم اندفعت وراءه وهي تبكي وتقول:

– "لا أريد الشنتة ولا ثوب الساتان..خذني لأمي!"

وعاد يطيب خاطرها من جديد، ويهمس لها بشيء فلانت وقالت له قبل أن يتركها:

– "سلّم على أمي.. وبوس أخوي محمد وأخوي علي.."

قالتها بلهجة لم أستطع معها الاّ أن أشيح بوجهي لأمسح دمعة انحدرت من عيني."

ليس هناك ما يفجع أكثر من يأس الأطفال! لماذا قضي على هؤلاء المساكين أن يحرموا نعمة العيش مع أهلهم؟..كان أحرى بمن كان في سنها أن تكون في أحضان المدرسة وقرب أمها وإخوتها..فمتى يعيش هذا الشعب حياة كريمة؟..

* * *

أفاقت نورا في اليوم التالي وكانت تبكي ولما مسحت على شعرها أسألها ما بها قالت خلال عبراتها:

– "حلمت بأمي تنام جنبي.. ولما أفقت شفت حالي وحدي.."

وضممتها وقبلت رأسها وأنا أقول:

– "انت ابنتي يا نورا وسأحبك كما أحب حنان، وسأشتري لك ثيابا جميلة وكل ما تحبين."

وأجابت وهي تكفكف دموعهاوتنظر الى بعيد:

– "أنا عارفة أنك تحبيني .. بس ما أقدر أعيش بغير أمي.."

وكثيرا ما تنهدت تلك الصغيرة وهي تنظر الى حنان، مقارنة بها وضعها..كنت ألحق طفلتي لأمشط شعرها وهي تهرب مني كعادتها وتضحك فقالت نورا وقد تهدّج صوتها:

– "نيّال حنان! عايشة بحضن أمها وأبوها.."

وفي يوم كان زوجي يداعب حنان ويقبلها ويدغدغها وهي مستغرقة في الضحك.. وفجأة كفّ عن ذلك وأنزلها الى الأرض ولم يستجب لإلحاحها في معاودة اللعب معها . وتبيّنت السبب حين التفتّ فوجدت نورا مستندة الى الباب تبتسم بأسى، فقلت لها:

– "خذي حنان والعبا سويا في الشرفة.."

والتفت اليّ زوجي ووجهه يختلج رحمة وأسى:

– "أتصدقين أنني أخجل من نفسي أن أدلل طفلتي أمام طفلة محرومة من الحنان؟"

ولم أعلق، ولكنني أخذت منذ ذلك اليوم أتحاشى جهدي الإسراف في تدليل أحد طفلينا أمام نورا.

كان لنورا وجه مستدير أسمر اللون وعينان سوداوان براقتان وفم صغير وأسنان مفترقة منتظمة.. وكان يبدو في محياها مخائل الفطنة والنجابة ، وفي حركاتها دفقة الحيوية، مرحة تحب الموسيقى والرقص والغناء الشعبي حبا جما.. وكثيرا ما فاجأتها تتمايل على أنغام المذياع في رقصة بارعة متقنة، وصوتها يجلجل طول النهار في ترنيم الأغاني الشعبية..

كانت حبيبة الإنطلاق والربى والأنهار واللعب، ومن العبث أن تطيق الحياة الحبيسة بين جدران أربع أو أن تعتاد على النظام..

وقفت ذات يوم قربي تساعدني في تجفيف الصحاف واليوم صحو جميل، فنظرت من النافذة وتأوهت وهي تقول:

– "بنات الضيعة يرحن الى النهر يقطفن الجرجير ويتراشقن بالماء.. ما أطيب الجرجير مع البصل والزيتون!"

وقلت لها وقد أدركت حاجتها الملحّة الى اللعب:

– "سنذهب بعد الظهر الى المنتزه فتشاهدين البطات البيضاء تسبح في البحيرة.."

وأعفيتها من مساعدتي فذهبت الى الشرفة تحملق بالمارة، وحين ذهبت لأنشر الغسيل رأيتها قد تسلقت الحائط وهي تهتف بطفلة تمرّ في الشارع في مثل سنها تعصب رأسها بفوطة بيضاء:

– "يا خادمة بيت الجيران!" وتتفقها بملاقط الغسيل.

كانت تعيّرها بسخرية وشماتة وكأنها تنتقم لنفسها، وجذبتها من يدها وأنا أقول:

– "هذا عمل معيب يا نورا.. أليس لها اسم تناديها به؟..كلنا نعمل ونتساعد حتى نعيش.. العمل ليس عيبا يا نورا.."

وسألت بدهشة وحزن:

– "الخدمة ليست عيبا؟ ليش بكرة بنات الضيعة يعيرنني لما أرجع وينقفنني بالحجارة؟"

وأجهشت بالبكاء.

أخبرها عمها حين جاء لزيارتها بأن خالها سيتزوج قريبا فلم يعرف قلبها الصغير الإستقرار حتى وعدتها ببضعة أيام تقضيها في القرية.

وحين عادت كانت واجمة حزينة النظرات تفكر بالوقت السعيد الذي مر سراعا، وقالت خلال دموعها:

– "قال لي أخوي محمد شردت بعد رواحك يا نورا، وما عدت أطيق البيت، ورحت أبكي وأناديك حتى المساء عندما حملتني أمي غصبا عني وأدخلتني البيت. وضمّني أخوي الصغير علي وقال لي لُاعبيني يا نورا.. ليش رحت وتركتيني يا أختي!" وقالت لي "والله يا نورا ماقدرت أحنّي ايدين أخويك قبل ما تيجي وأحنيك.. حرقت قلبي يانورا.. مرضت بعد رواحك لكثرة ما بكيت."

كانت نورا تتحدث بانطلاق عن أيامها السعيدة الثلاثة ولا تترك شاردة ولا واردة الاّ ذكرتها:

– "نمت في فراش أمي هيك.. بينها وبين أخوي محمد وكنت أفيق بالليل وأسمع أمي تقول لي "انت جنبي يا نورا ياحبيبتي؟"

ولا يلبث ان يشرق وجهها وتردف:

– "رقصت وغنيت ودوّخت بنات الضيعة في عرس خالي.. اشترى لي أبوي فستان ساتان أحمر، وخيّطته أمي كشاكش هيك.. يامحمد شو حلو.. والعروس شو حلوة! مثل القمر.. خالي وحيد ويحبني كثير!"

كانت كل كلمة تفوه بها نورا تطعن قلبي بسكين وقلت لها:

– "ليش رجعت يا نورا ؟ .. أما قلت لك ابق هناك ان لم ترغبي بالعودة؟"

فأجابتني وهي تكفكف دمعها:

– "قالت لي أمي عيب تبقي عندنا يا نورا قبل ما تخلصي مدّتك.. يقولون عنا نصابين!.."

وقرّ رأيي على إرسالها مع عمها حين يأتي لزيارتها فرفضت قائلة بأن عمها يؤجرها لبيت آخر ولا يرجع بها الى الضيعة ..

ولم يمض وقت طويل حتى جاءت والدة نورا لزيارتها ومعها زوجة الخال العروس.. ارتمت نورا على صدرها تبكي والأم تضمّها وتقبلها بلهفة.. كانت الأم شابة لاتتجاوز الخامسة والعشرين تشبه نورا الى حد كبير وهتفت باكية:

– "أخطأت البيت ودخلت بيتا ثانيا في الجوار .. شفت بنت حافية عريانة تغسل الدرج وظنيتها نورا .. يا ناري عليها انفلق قلبي من القهر.. أنا خدمت في البيوت وعرفت الشقاء، ولا أريد ابنتي تنهان!"

وقلت لها بإشفاق:

– "خذي نورا معك.. ان الطفلة متعلقة بك كثيرا.."

فرمقتني الأم بدهشة وحذر:

– "ما أفكر بتشريدها.. اطمأن بالي عليها .."

وأخذت نورا تعول:

– "خذيني معك للضيعة! مشتاقة للضيعة.."

وسألتني الأم ان كنت أسمح لنورا ببضعة أيام أخرى تقضيها في الضيعة وأردفت:

– "إنها لأول مرة تتركنا، والحال مرّ علينا كلنا.. أحلف لك أنني سأرجعها.. ما أنا كذابة ولا أفكر بتشريدها.."

وعصر قلبي انكسارها.. انكسار أم يحول الدهر القاسي بينها وبين فلذة كبدها.

– "أنت أمها..ما عرفت ليش طلبت أشوفك؟..خذيها للضيعة حتى تبقى قربك وقرب أخويها.."

وقالت بخوف: "أبوها يطلقني لو رجّعت نورا قبل انتهاء مدتها..ما أقدر! يقول لي جماعة طيبين.."

فأجبتها: "أخبريه بأنني أنا التي لاأريدها.. إنها أصغر من أن تساعدني بشيء.."

انطلقت نورا لتبدل ثيابها القصيرة بالثوب الطويل الساتان الذي أحضرته لها أمها لتلبسه كي لاتضحك منها بنات القرية والفرح يرقص قدميها الصغيرتين..

ذهبت، وكنت في الأيام الصاحية أتخيلها مع بنات القرية قرب النهر يقطفن الجرجير ويتراشقن بالماء ويتضاحكن، وأشعر بالرضى عن نفسي كطفل يطلق عصفورا صغيرا من محبسه في القفص، ولكنني فوجئت يوما بوجهها الصغير يطل عليّ من باب أحد المنازل في شارعنا..كان في عينيها انكسار وخوف وتضع على رأسها فوطة بيضاء، وأجهشت بالبكاء وهي تتوارى خلف الباب..

* * *